الباب الثانى

«شخصية ذى القرنين»

المذكور فى القرآن الكريم

obeikan.com

فصل تمهيدى

حول شخصية ذى القرنين

obeikan.com

جاء فى سورة الكهف ذكر شخص من التاريخ القديم، لقبوه بذى القرنين» والآيات كما يلى:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[الكهف: ٨٣-٩٨].

بعض الروايات فى سبب نزول هذه الآيات:

يبدو جليا من أسلوب هذه الآيات وسياقها أن النبى صلوات الله وسلامه عليه سئل عن ذى القرنين، فجاءت الآيات جوابًا للسؤال. فقد روى الترمذى والنسائى والإمام أحمد فى مسنده أن قريشا - بإيعاذ من شيوخ وعلماء اليهود - سألت النبى عن أمور، منها ذو القرنين فقالت: «من هذا الرجل وما هى أعماله؟» - وروى القرطبى عن السدى :«قالت اليهود أخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد. قال ومن؟ قالوا «ذو القرنين».

وقد أحصى ابن جرير وابن كثير والسيوطى الروايات بهذا الصدد فى تفاسيرهم

خصائص ذى القرنين فى القرآن الكريم - وأن ما ذكر فى الآيات من خصائص «ذى القرنين» يتلخص فى الآتى:

١- أن الرجل الذى سألوا النبى عنه، كانوا يسمونه بـ«ذى القرنين». أى أن هذا الاسم أو اللقب لم يضعه القرآن من عنده، بل الذين سألوا عنه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

٢- أن الله عز وجل قد أعطاه الملك وهيأ له أسباب الحكم والغلبة.

٣- كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثا:

الأولى غربية: فقد زحف من بلاده متوجها إلى الغرب حتى وصل مكانا كان له حد المغرب، فوجد الشمس هناك كأنها تغرب فى عين.

والثانية شرقية: فما زال يتقدم حتى بلغ أرضا لا عمران فيها، تقطنها القبائل البدوية.

والمهمة الثالثة: وصلت به إلى مكان به مضيق جبلى، يشن من ورائه قوم الغارات على الأهالى وقد سماهم هؤلاء الأهالى باسم «يأجوج ومأجوج». وكان هؤلاء همجا، حرموا من المدنية والعقل.

٤- أقام «ذو القرنين» سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم.

٥- لم يستخدم فى هذا السد الحجر والآجر فقط، بل استخدم فيه الحديد وأفرغ عليه النحاس كذلك، فأصبح سدا منيعا تعجز دونه همم المغيرين.

٦- كان الملك «ذو القرنين» مؤمنا بالله الواحد الأحد والآخرة.

٧- كان ملكا عادلا رحيما برعيته، ولا يبيح الفتك أو الظلم أو القسوة بالمفتوحين، فإنه لما تغلب على قوم فى الغرب، ظنوا أنه سيرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين. فلم

يفعل ذلك بل قال لهم، لا خوف على الأبرياء منه، فإنه من يعمل خيرا يجزيه، كان القوم فى قبضة يده لا ناصر لهم إلا أنه أشفق عليهم وكسب قلوبهم بعدله وإحسانه.

٨- لم يكن حريصا على المال. فإنه لما أراد المفتوحون أن يجمعوا له المال لإقامة السد، أبى أخذه منهم قائلا إن ما أعطانى الله يغنينى عن أموالكم ولكن أعينونى بقوة أيديكم، أشيد لكم سدا حديديا.

obeikan.com

الفصل الأول

حيرة المفسرين وتصور اليهود القومى حول شخصية ((ذى القرنين))

obeikan.com

إن الشخصية التاريخية التى هذه أعمالها وصفاتها - كما قدمنا - هى لا ريب شخصية «ذى القرنين» ولكن من هو هذا الرجل ومتى وأين وجد وماذا كانت عقيدته؟

ومن المنطقى أن تكون أول مسألة شغلت بال المفسرين فى هذا الصدد، هو اسم الرجل أو لقبه، إذ لم يعرف أن يكون لإنسان قرن أو قرون ولم يعرف فى التاريخ ملك لقب بهذا اللقب، فتحيروا وتخبطوا فى تفسيره خبط عشواء. فقال بعضهم أن «القرن» لم يستعمل فى معناه الظاهر بل أريد به الزمن. ولما كان هذا الملك امتد حكمه واتسع نطاق فتوحه إلى عهدين كبيرين، لقب بذى القرنين، ثم اختلفوا فى تحديد مدة القرن، فقيل ثلاثون سنة، وقيل خمس وعشرون سنة وقيل عشر سنين - وكلها أقوال لا طائل تحتها.

وقد جمع ابن جرير الطبرى فى تفسيره آثار الصدر الأول فى الباب، إلا أنها لم تلقى ضوءًا على شخصية خاصة، بل تبحث فيما إذا كان ذو القرنين نبيا أو غير نبى، بشرًا أو ملكًا؟

ولكن الآثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة فى القدم. فقد قيل فى بعض الروايات أنه عاصر إبراهيم عليه السلام وأنه كان من الأنبياء فذكره البخارى مع الأنبياء القدماء وقدم ذكره على إبراهيم عليه السلام فقد كان يرى أن ذا القرنين قد وجد قبل إبراهيم بزمن قليل أو فى عصره.

وعندما بدأ عهد جديد للبحث والنقد، اتجهت أذهان بعض المؤرخين إلى اليمن، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين مثل «ذى الآذار».. فلا يبعد أنه وجد ملك يمنى سمى بـ«ذى القرنين» كذلك. وهو ما ذكره أبو الريحان البيرونى فى «الآثار الباقية» ووافقه عليه بن خلدون. فقد نلحظ أولا: أن الآثار أجمعت على أن الذين سألوا النبى صلوات الله وسلامه عليه عن ذى القرنين، هم اليهود، أو قريش بإيعاز من اليهود، وليس هنالك سبب يدعو اليهود لمعرفة ملك يمنى والاهتمام به إلى

حد السؤال عنه أو الإيعاذ لقريش بالسؤال عنه.

وثانيا: لو فرضنا أن قريش مكة هم الذين تقدموا بالسؤال عنه من تلقاء أنفسهم، فبما أن أحوال الملوك الحميريين كانت معروفة لديهم فإن هذا الافتراض كذلك لا يغنينا شيئا، إذ لو كان هكذا لوجدنا له أثرا وذكرا فى روايات العرب وأساطيرهم، أو فى أحاديث الصحابة والتابعين. وهذا لا وجود له البتة، ثم لا يغرب عن البال أن السائلين كانوا يبغون تعجيز النبى، فكانوا على يقين أنه لم يصله خبر عن ذى القرنين من أنباء قومه، فيعجزعن الجواب، ولو كان ذو القرنين رجلا من العرب وكان أهل الحجاز على علم به، لشاركهم النبى فيما يعلمونه ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شىء معروف لديه.

والتساؤل الحقيقى اذى نحن بصدده هو: هل تنطبق الخصائص والأعمال التى ذكرها القرآن لذى القرنين على ملك حميرى؟

يذكر القرآن فتوحا له فى الغرب وفتوحا له فى الشرق، وإقامة سد حديدى يمنع هجمات يأجوج ومأجوج ولم توجد إلى الآن شهادة تاريخية على وجود ملك حميرى، أمعن فى الشرق والغرب مغيرا فاتحا، وبنى سدا حديديا كما ذكره القرآن. أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بـ«ذى» فلا أهمية له. وكذلك التشبث بسد مأرب لا يجدى نفعا، إذ لم يذكر أن هذا السد بنى لصد هجمات قوم واستخدمت فى بنائه ألواح من الحديد، ثم إن القرآن أشار إلى سد مأرب فى مكان آخر ولا شبه بينه وبين سد ذى القرنين بوجه من الوجوه.

ثم جاءت طبقة المفكرين والمثقفين فذهبوا إلى أن الإسكندر المقدونى قد اشتهر بملكه وانتصاراته فى الشرق والغرب، فيكون هو ذا القرنين. ويبدو أن ابن سينا أول من قال بهذا فى كتابه «الشفاء» فإنه عند ذكر بيان مناقب أرسطا ليس قال إنه كان معلما للإسكندر الذى ذكره القرآن باسم ذى القرنين وأثنى على إيمانه

وسلوكه القويم. ووافق الإمام فخر الدين الرازى ابن سينا فى رأيه. وسرد فى تفسيره الشهير - على عادته، كل ما قيل خلاف هذا الرأى. ولكنه اقتنع بالأجوبة الواهية، فى حين أن الإسكندر المقدونى لا يمكن أن يكون ذا القرنين الذى ذكره القرآن بحال من الأحوال، ولا يقال عن فتوحه أنها فتوح فى الشرق والغرب، كما أنه لم يبن سدا فى حياته كلها، ثم أننا نستطيع أن نجزم بأنه لم يكن مؤمنا بالله ولا رحيما عادلا مع الشعوب المغلوبة. فإن ذلك المقدونى قد دون تاريخ حياته ولا يوجد شبه بين أحواله وأحوال ذى القرنين. وفوق هذا ليس ثمة سبب يسوغ تلقيبه بذى القرنين حتى أن الإمام فخر الدين الرازى بنفسه قد عجز عن إثبات ذلك.

تاريخ اليهود القومى وتصور شخصية ذى القرنين:

والحاصل أن المفسرين لم يصلوا إلى نتيجة مقنعة فى بحثهم عن ذى القرنين. فالقدماء منهم لم يحاولوا التحقيق، ومن تلاهم حاولوه ولكن كان نصيبهم الفشل.

ولا غرابة فى ذلك، فالطريق الذى سلكه المفسرون كان خاطئا. فالسؤال كان من قبل اليهود، فكان الأجدر بالباحثين أن يرجعوا إلى أسفار اليهود للبحث عن شيء يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين. إنهم لو فعلوا ذلك لتلمسوا الحقيقة.

سفر دانيال ورؤياه:

يوجد بين دفتى «العهد القديم» سفر منسوب إلى دانيال النبى، مذكور فيه بعض أعماله، وما كشف له عنه فى رؤياه أيام أسر اليهود ببابل. فلقد كان عهد الأسر هذا، عهد ابتلاء عظيم لليهود فقد ديست قوميتهم وخرب هيكلهم المقدس، فكانوا فى حزن ويأس عظيمين، ولا يدرون كيف ومتى يتبدل هذا الحزن وهذا اليأس.

يقول لنا سفر دانيال إنه ظهر فى تلك الأيام السود دانيال النبى، فتقرب بنبوءاته العجيبة وحكمته البالغة إلى ملوك بابل الذين تقبلوه بقبول حسن، فأنسوا به وأكرموه ورفعوه فوق السحرة والعرافين، وأن دانيال رأى رؤيا فى السنة الثالثة لجلوس الملك بيلش فر، كشفت له ما هو واقع من الأحداث، فجاء فى سفر دانيال (١:٨):

«فى السنة الثالثة لجلوس بيلش فر الملك كنت بمدينة سوس هيرا من أعمال عيلام على شاطئ النهر أولائى، فرأيت الرؤيا للمرة الثانية. رأيت كبشا واقفا على شاطئ النهر له قرنان عاليان. وكان الواحد منهما منحرفا إلى ظهره، ورأيت الكبش ينطح بقرنيه غربا وشرقا وجنوبا لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه. فهو يفعل ما يشاء وصار هو كبيرا جدا وبينما أنا أفكر فى هذه الظاهرة إذ رأيت تيسا أقبل من جهة الغرب وغشى وجه الأرض كلها، وكان بارزا بين عينى التيس قرن عجيب. ثم إن التيس اقترب من الكبش ذى القرنين ونفر منه مغضبا ثم عمد إليه فكسر قرنيه وصرعه وداسه فأصبح الكبش ذو القرنين عاجزا عن مقاومته، محروما من ناصر ينصره عليه» «سفر دانيال ٨:١».

ثم ذكر السفر على لسان دانيال أن الملك جبريل ظهر له وشرح رؤياه قائلا: «أن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين، مادا وفارس، فيملكهما ملك قوى لا تقدر دولة على مواجهته.

أما التيس دون القرن الواحد الذى رآه بعد الكبش، فالمراد منه ملك اليونان، والقرن البارز بين عينى التيس، يدل على أول ملك من اليونان (١٥:٨).

فهذه النبوءة مثلت فيها المملكتان «مادا» (ميديا) وفارس، بقرنين. ولما كانت المملكتان ستتحدان وتصبحان مملكة واحدة، مثلت شخصية ملكهما بكبش ذى قرنين.

ثم الذى يقضي على هذا الكبش ذى القرنين ويسيطر على الأرض كلها، هو قرن تيس اليونان، أى الإسكندر المقدونى، فقد حمل الإسكندر على «دارايوش»، امبراطور مادا وفارس، وانهارت به سيادة أسرة هنيا منشى أو المملكة الكيانية إلى آخر الدهر.

ومما ينبغى الإشارة إليه وبيانه هنا أن كلمة «القرن» عامة فى اللغتين العربية والعبرية. فقد وصف الكبش فى سفر دانيال العبرى بـ(لو قرانائيم) ومعناه بالعربية «له قرنان» - أى أنه ذو القرنين.

كانت لليهود فى رؤيا دانيال بشارة بأن نهاية أسرهم وبدء نشأتهم الجديدة، منوط بقيام هذه المملكة ذات القرنين. أى أن ملك مادا وفارس يغير على ملك بابل ويتغلب عليه ويحرر اليهود من أسرهم. وأن هذا هو الملك الذى اختاره الله لإعانة اليهود ورعايتهم، فيأمر بتعمير بيت المقدس من جديد ويجتمع الشعب الإسرائيلى الممزق مرة أخرى تحت رعايته.

وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك غورش (قورش بالعربية) الذى سماه اليونان بـ«سائرس» واليهود بـ«خورس» فوحد مملكتى «مادا» و«فارس» وأنشأ منهما سلطنة عظيمة، ثم هاجم بابل واستولى عليها دون عناء. رأى دانيال فى رؤياه أن الكبش ذا القرنين ينطح بقرنيه فى الغرب والشرق والجنوب أى يحوز انتصارات باهرة فى الجهات الثلاث. هكذا كان أمر غورش فقد كان انتصاره الأول فى الغرب والثانى فى الشرق والثالث فى الجنوب أى فى بابل.

وكذلك صدقت النبوءة بخلاص اليهود وازدهارهم. فقد أطلقهم قورش بعد فتحه بابل من الأسر وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل من جديد، وحذا حذو غورش خلفاؤه من ملوك مادا وفارس فى الرفق باليهود وحمايتهم.

وكذلك صدقت النبوءة بخلاص اليهود وازدهارهم. فقد أطلقهم قورش بعد فتحه بابل من الأسر وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل من جديد، وحذا حذو غورش خلفاؤه من ملوك مادا وفارس فى الرفق باليهود وحمايتهم.

نبوءات إشعيا وإرميا:

وفيما نحن بصدده نجد فى التوراة نبوءات فى سفرين غير سفر دانيال، هما سفر النبى إشعيا وسفر النبى إرميا. ونجد فى الأول منهما اسم قورش بعينه وإن كان النطق به فى العبرية «خورش». ويعتقد اليهود أن كتاب إشعيا ألف قبل غورش بمائة وستين سنة وكتاب إرميا بستين سنة. ونجد فى سفر عزرا تفصيلا كاملا للأمر، فقد ذكر أن نبوءات دانيال هذه وصلت إلى مسامع الملك خورس بعد فتحه بابل، فتأثر بها أى تأثر، وكانت النتيجة أن قام بحماية اليهود، فأطلق سراحهم وأمر بتجديد بناية الهيكل.

وسفر إشعيا يخبر أولا بخراب أورشليم على أيدى البابليين، ثم يبشر بتجديد عمرانها. ويذكر فى هذا الشأن «خورس» أى الملك قورش فيقول:

«يقول الرب المنقذ.. تعمر يروشلم من جديد، وتقوم مدن يهوذا مرة أخرى. أنا أبنى بيوتها المخربة كرة أخرى» (٤٤:٣٤).

وإنى أقول فى حق خورس (قورش) بأنه راع لى وهو يتم مرضاتى كلها.. يقول الرب فى شأن مسيحه خورس، أنا أخذت بيده اليمنى لأجعل الأمم فى حوزته، وأنزع القوة من سواعد الملوك وأفتح له الأبواب تلو الأبواب. أجل، إنى أمشى بين يديك، وأقوم ما أعوج من سبلك، وأكسر الأبواب النحاسية، وأمنحك الخزائن المدفونة والكنوز التى فى البيوت المخبية. أفعل كل ذلك لتعلم أننى أنا الرب، إله إسرائيل الذى ناداك باسمك صراحة لأجل إسرائيل شعبه المختار» (إشعيا: ٤٥: ١).

وشبه قورش بعقاب الشرق فى مكان آخر من السفر فقال:

«ها! انظروا إنى أدعو عقابا من الشرق، ادعو ذلك الرجل الذى يأتى من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى» (اشعيا ٤٦: ١١).

وهكذا نقرأ فى سفر إرميا:

«نادوا فى الأمم ولا تخفوا. قولوا أخذت بابل، خزى البعل (صنم بابل الشهير)، بهت مردوك (صنم بابلى آخر)، لحق العار بجميع أصنامها، جعلت أوثانها شذر مذر، لأن شعبا من الجنوب مقبل زاحفا نحو بابل. يخرب أرضها، حتى لا ترى بها بشرا» (إرميا ٥٠: ١).

وهذا السفر (إرميا) يتنبأ بأسر اليهود ودمارهم ثم يبشر بتجديد إعمار أورشليم فقد جاء فيه: «يقول الرب لما تكمل سبعون سنة على أسر بابل، آتى إليكم. إذ ذاك تدعوننى فأجيبكم، تنشدوننى فتجدوننى. أفك القيد عنكم وأعود بكم إلى أوطانكم» (إرميا ٣٩: ١).

فمن الملاحظ أن أسفار العهد القديم هذه يتبين أن تصور «ذى القرنين» للملك قورش كان قد بدأ، لأنه مثل فى رؤيا دانيال النبى بكبش ذى قرنين، وأن شخصية الملك قورش كانت قد احتلت مكانا هاما فى عقيدة اليهود.

*- سلف قورش وخلفه:

إن شجرة نسب قورش التى ذكرها المؤرخين هيرو دوتس وزينوفن، قد صدقتها لوحة دارايوش، فكان والد جد قورش هو هخامنشى الذى دعاه اليونانيون بـ«أيكى مينس» Achaemenes - وقد أجمع المؤرخون ولوحة دارايوش على أن ملوك مادا وفارس كانوا ينتسبون إليه، وقد جعلوا اسمه، اسما لأسرتهم، أى سموا أسرتهم «هخامنشى».

وولد لهخامنشى ابنه شائش بيز، الذى حرف اليونانيون اسمه فقالوا «تائزبيز» وولد لهذا كمبوشيه الذى أصبح فى اليونانية «كم بى سز»Cambyses وفى العربية

كمبوشيا، وولد لكمبوشيا قورش. وقد سمى قورش أيضاً ولده البكر على اسم أبيه كمبوشيا وأضيف إليه اللقب الملكى «أهشورش» وظل يستعمل للملوك بعده إلا أن اليونانيين حرفوه فقالوا «أهاسورس» والعرب «أخشورش».

وارتقى كمبوشيا العرش بعد أبيه قورش، وهاجم مصر سنة ٥٢٥ ق.م. واستولى عليها، ووصلت الأنباء وهو فى مصر بأن أهل مادا شقوا عصا الطاعة وأن رجلا يدعى «جوماتا» زعم بأنه أخ لكمبوشية وأن اسمه «بردية» ولذلك يستحق الملك. وقد سمى أهل اليونان، بردية هذا بسمرديز. ولما علم كمبوشية بالثورة، غادر مصر قاصدا بلاده، ولكنه توفى بالشام، وقيل مات غيلة. ولما لم يبق من ولد قورش بعد هلاك كمبوشية أحد، توج أمراء البلاد ابن عم له وهو داريوشن. فهزم دارايوش الثوار وقتل المدعى «جوماتا» ووصل بملكه إلى الذروة من العز والمجد.

أما دارايوش فكان والده، غشتاسب أوهستاس بيز على نطق اليونان ولكنه ذكر فى أوستا باسم «وشتاسب». وخلف «دارايوش» أرتخششت الذى سماه أهل اليونان «أرتازركس» والعرب «زردشير». وهؤلاء الملوك الأربعة هم الذين نجد أسماؤهم فى أسفار اليهود، أى قورش وأخشورش ودارايوش وأردشير. **وقد بدأ اليهود بإعادة بناء هيكل أورشليم فى عهد قورش وأتموه فى أيام أردشير.**

***- المنهج الحديث لنقد العهد القديم وزمن تاليف أسفار إشعيا وإرميا ودانيال:**

بدأ اسلوب نقد العهد القديم فى القرن التاسع عشر باسم «النقد الأعلى» والذى ساهم فيه بالقسط الأوفر العلماء الألمان، وقد دونت نتائجه، وانضمت إليها بحوث علماء القرن العشرين، ونجد أن أبحاثهم فى نبوءات الأسفار الثلاثة وزمن تدوينها قد انتهت إلى ما يلى:

١- أن الكتاب الذى نسب إلى أشعيا النبى، تنطق مواضيعه ولغته وكل ما احتوى عليه بأنه تأليف ثلاثة من المؤلفين، وجدوا فى أزمان ثلاثة مختلفة. فهو من الإصحاح الأول إلى الإصحاح التاسع والثلاثين تأليف مؤلف. ومن الإصحاح الأربعين إلى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الخامس والخمسين تأليف مؤلف ثان، والذى بعده من الإصحاح ألفه مؤلف ثالث.

ولتسهيل المراجعة اصطلحوا فى المباحث النقدية على أن يقولوا: إشعيا الأول وإشعيا الثانى وإشعيا الثالث. فهم يرجحون أن إشعيا الأول كان فى العهد الذى يرويه اليهود، أى قبل الملك قورش بمائة وستين سنة. أما إشعيا الثانى الذى تنبأ بظهور قورش، فكان موجودا أيام أسر بابل كما هو ظاهر من أقواله التى تشعر بظروف غير ظروف صاحبه الأول.

٢- وأما إشعيا الثالث فعهده بعد الثانى. وهو يقدم لنا ظروفا وحالات تختلف عن سميه الذى تقدمه. فالنبوءات بغارة نبوخذ نصر وأسر اليهود ببابل وظهور قورش، نجدها فى كلام إشعيا الثانى، وهو كما قدمنا كان موجودا فى ذلك العهد، ولا يمكن نسبة كلامه إلى إشعيا الأول.

لقد صبغ الرجل حوادث زمنه والتى قبل زمنه بصبغة القدم. ونسب كلامه إلى إشعيا الأول، ليوهم الناس بأنه كلام قديم مضت عليه مائة وستون سنة. وقال الباحثون إن أكبر دليل على اختلاف شخصيات المؤلفين، هو الاختلاف الفكرى وتباين

المزاج التصورى الذى يوجد فى السفر. فاليهود من أول يومهم تخيلوا الله كإله قبائلى، وافترضوا معبده معبدا قبائليا. فكان يهوا - إله إسرائيل الشعبى والقبائلى - لا يمت بصلة مع شعوب أخرى. وكلنا نجد فى سفر إشعيا لأول مرة تصورا إلهيا جديدا - تصور إله عام للبشر كله، ونجد الهيكل الإسرائيلى بأورشليم يتحول من معبد قبائلى إلى معبد عام لسائر الأمم الإنسانية. هذا التصور الجديد هو تصور رشعيا الثالث خاصة، لأن الظروف التى كانت لازمة لخلق هذا التصور، لم توجد فى زمن إشعياء الأول.

٣- وهكذا ما نجده فى سفر إرميا من النبوءة بانتهاء أسر بابل وتجديد عمارة الهيكل، لا يراه الباحثون سابقا للحوادث بستين سنة، بل يقولون إنه كتب وألحق بالسفر بعد أن تحرر اليهود من أسر بابل وباشروا تعمير الهيكل من جديد.

٤- أما السفر المنسوب إلى دانيال فقد ذكرت فيه رؤيا أخرى، رآها ملك بابل وأولها دانيال وفى تعبيره نجد نبأ صريحا بظهور الإسكندر المقدونى، وسقوط الامبراطورية الفارسية، وقيام الامبراطورية الرومانية.

ويرى الباحثون الحديثون أن السفر مزور، ألف بعد تحرر اليهود من بابل بقرون عندما بلغت الامبراطورية الرومانية أوج مجدها ليس هذا فحسب، بل ارتاب الباحثون فى وجود دانيال النبى نفسه. فرأى بعضهم أنه لم يوجد قط وإنما اختلقوه لنسج هذه القصة.

واعترف البعض الآخر بوجوده أيام أسر بابل دون أن يسلموا بالأقوال التى نسبت إليه، قائلين إنها اخترعت فيما بعد لتقوية آمال اليهود بمستقبلهم بنبوءات وخوارق ماضية.

والذى رجحه أكثر الباحثين أن زمن تأليف هذا السفر لا يتعدى القرن الأول قبل الميلاد، فالبروفيسور ميكس لوئر Maxoehr وضع سفر دانيال فى قائمته التى كتبها للعهد عن سنة ١٦٤ ق.م.

تخيل اليهود القومى وانتظارهم لمنقذ:

إن ما قدمناه من سفر إشعيا النبى، ظهرت فيه شخصية الملك خورس (قورش) كمنقذ موعود به أرسله الله لتحرير اليهود من أسر بابل وتجديد إعمار أورشليم، فقال الله «إن خورس راع لى وهو يتم مرضاتى كلها» وقال «أنا أخذت بيده اليمنى لأجعل الأمم فى حوزته» ثم يخاطب الله خورس (قورش) نفسه قائلا «أفعل كل ذلك لتعلم أننى أنا الرب إله إسرائيل الذى ناداك باسمك صراحة لأجل إسرائيل، شعبه المختار».

فنرى بجلاء، والحالة هذه، تلك العقلية اليهودية التى مازالت تؤملهم عند كل كارثة نزلت بهم فى ظهور منقذ ينقذهم منها، والتى اتخذت نهائيا شكل العقيدة القومية بمجىء مسيح موعود به.

فسفر إشعيا يصورخورس (قورش) كذلك بصورة مسيح، فيض فى شأنه بصراحة تامة قائلا: «إن الله يقول فى حق خورس مسيحه».

لقد بدأت حياة اليهود القومية بموسى الذى ظهر فى عصر كان اليهود يعيشون عيشة الذل والأسر فى مصر، لا أمل لهم فى حياة قومية عزيزة، ولكن موسى عليه السلام بعث فيهم روحا جديدة وصور لهم المستقبل بصورة رائعة أخاذة وجعلهم يؤمنون بأن رب إسرائيل بعثة لإنقاذ بنى إسرائيل وانهاضهم وأن مشيئة الرب قضت بأن يفضل الشعب المختار على سائر الشعوب.

وقد نشأ من هذا الإيمان فى عقلية اليهود القومية تخيلان أساسيان: فاعتقدوا بأنهم شعب الله المختار، وبأن الله أرسل إليهم منقذا عندما كانوا فى الذل والأسر. فتولدت من التخيل الأول فيهم نظرية الترفع القومى ومن الثانى نظرية ظهور منقذ عندما تنزل بهم المصائب، فاعتقدوا بأنهم كلما يعمهم البلاء والدمار، تتحرك رحمة الله فيرسل

منقذا موعودا به يخرج بهم إلى السلامة والرفاهية.

وقد ظهر ساؤل (طالوت) والنبي داود فى ظروف كهذه، خلقت فى الشعب آمالا جديدة، ولذلك نجد داود أيضا لقب بـ(المسيح) وكان هذا أول استعمال للقب. فكان لزاما، والتقاليد القومية هذه، أن نبثق نور جديد للأمل فى ذلك الظلام القاتم الذى وجد فيه اليهود أنفسهم ببابل ويتهيأ الذهن اليهودى فى ضوئه لانتظار منقذ لهم. فآمال النجاة والتحرر هى التى تجلت فى كلام إشعيا الثانى فى حلل النبوءات.

إشعيا الثانى ودعوة قورش لفتح بابل:

أجمعت روايات العهد القديم وروايات المؤرخين اليونانيين على أن أهل بابل كانوا قد ضجوا من تعسف واستبداد وطغيان ملكهم بيل شازار، فتآمروا على دعوة امبراطور فارس (قورش) للاستيلاء على بابل بعدما علموا المعاملة الحسنة التى عامل بها هذا الملك أهل ليديا بعد أن فتحها، فرجوا مثل ذلك منه لأنفسهم.

ويقول مؤرخو اليونان أن واليا من ولاة بابل، هو غوب رياس، كان قد هرب إلى بلاط قورش وصحبه أثناء زحفه على بابل. وفى ذلك قال هيرودوتس أن فتح بابل إنما كان بتدبير هذا الوالى فلما دقق الباحثون النظر فى نبوءات إشعيا الثانى بعد درسهم هذه الحوادث التاريخية، وصلوا إلى نتيجة منطقية حاسمة للوقائع هى:

إن كلام إشعيا الثانى لا يخلو من أن يكون قبيل فتح بابل أو بعده. فإن فرضنا الفرض الأول فلا مناص من الاعتراف بأن إشعيا الثانى كان مطلعا على ظروف الزمن السياسية إطلاعا تاما. فصاغ تلك الظروف والآمال على نهج مؤلفى أسفار اليهود فى صيغة النبوءات وألحقها بكلام إشعيا الأول.

وإن فرضنا أن ما قاله أشعيا الثانى كان بعد الفتح سهل الأمر، باعتبار أن المصالح القومية حملت الرجل على أن صور الحوادث التى وقعت فعلا بنبوءات وأنباء بالمستقبل ناسيا كلامه إلى أشعيا الأول.

النبوءات اليهودية والملك قورش:

وفى سفر آخر من التوراة منسوب إلى النبى عزير (عزرا) نجد ما وقع بعد فتح بابل. إذ يخبرنا هذا السفر أن رؤساء اليهود عرضوا النبوءات التى تقدم ذكرها على الملك قورش، قائلين له إن الرب سماه فى كلامه وجعله المنقذ لشعبه المختار، وأن الملك قد تأثر بما سمع، فكان أن أصدر أمره بتجديد بناية الهيكل. ومما لا ريب فيه أن قورش بعد فتح بابل وخلفاءه من بعده قد خصوا اليهود بعطفهم ورعايتهم، وأن بعض اليهود نالوا الحظوة فى بلاطهم، هذه وقائع تاريخية لا يمكن تكذيبها.

وقد يكون بعض ما جاء فى سفر عزير خلوا من الصحة، إلا أن الحوادث الأساسية يجب التسليم بها. فمن المعلوم المتعارف عليه أن أسر اليهود ببابل قد انتهى باستيلاء قورش عليها، وأن عددا كبيرا منهم رحل إلى فلسطين ليتوطن بها، وأن الملك قورش هو الذى أذن لهم بذلك ومن المعلوم كذلك أن الهيكل بنى بأورشليم، وذلك بمنشورات ملكية خاصة. ومن المعلوم أيضا أن إعادة بناء الهيكل قد صدرت فى شأنه أوامر ملكية مرة بعد أخرى. وقد نقلت أحكام قورش ودارايوش وأردشير (أرتخششت) فى سفر عزير. تؤيدها بعض كتابات مؤرخى اليونان. هذا بالإضافة إلى أن بعض روايات اليهود القومية تقول إن عزرا ونحميا وحجى الأنبياء قد وصلوا إلى مقام كريم فى بلاط الإمبراطور أردشير (أرتخششت) وأنهم هم الذين حملوا الملك على إصدار أوامره الخاصة باليهود وليس هنا سبب ظاهر يدفع لإنكار كل هذا.

ولو صحت هذه الحوادث فينبغى علينا أن نبحث عن العوامل التى حملت قورش على الرفق باليهود، ونتساءل: ألم تكن هذه النبوءات من تلك العوامل؟

إن أهم ما فى النبوءات اليهودية نبوءة دانيال التى مثلت فيها المملكة المتحدة من مادا وفارس، فى شكل كبش ذى قرنين. ليكن ما فى هذه النبوة من الكلام الدال على الإسكندر المقدونى الحاقيا، ولكن الجزء الأول منها الذى يتعلق بظهور قورش كان من شأنه أن يشهر فى ذلك الزمن، ومن المحتمل جدا أنه اشتهر فعلا، فيكون قورش قد تلقاه بحسن القبول.

هذا وقد حل التمثال الحجرى لقورش الذى تم العثور عليه فى حفريات إيران المسألة إلى حد بعيد أما ارتياب الباحثين الحديثين فى وجود دانيال، فالقرائن والأخبار لا تدعمه.. فالكلام الذى احتوى عليه لابد له من أصل حقيقى، فإن كان يجوز عدم التسليم بقصة دانيال كلها، إلا أنه ينبغى أن نسلم بأن شخصا وجد بهذا الاسم وأنه نال الحظوة فى بلاط بابل بعلمه وحكمته.

***- علاقات اليهود والزرادشتيين:**

لا ينبغى أن ننسى - ونحن بصدد هذا البحث وعلاقة قورش باليهود فى زمنه - أن قورش والملقب بالمسيح فى التوراة، كان من اتباع مذهب مزديسنا (زرادشت) أى الدين الزرادشتى. وهذا أمر له أهمية خاصة فى العلاقة التى كانت بين الفارسيين والإسرائيليين. فمن المعلوم أن الوثنية - فى زمن قورش - كانت عامة شاملة العالم كله، ولم يشذ عنها إلا فئتان اثنتان: اليهود والزرادشتيون. فقد اجتنب الدينان الوثنية وأشكالها. وليس فى تاريخ أهلهما مجال للاعتراف بالوثنية أو ما قد يشير صراحة إلى ذلك. وما دام الأمر هكذا فمن المنطقى والمعقول أن نفرض أن قورش بعد فتحه لبابل، وعندما بلغته عقائد اليهود والأحكام الأخلاقية التى جاء بها دينهم، يكون قد وجد تصوراتهم الدينية والعقائدية قريبة جدا لتصوراته، فاندفع بطبيعة الحال إلى حمايتهم وتحريرهم وتلقى نبوءاتهم برغبة خالصة.

وقد يجدر الذكر هنا أن مؤرخي العرب عندما أقبلوا على تدوين التاريخ قبل الإسلام، وجدوا فى الروايات الإسرائيلية ما يربط زرادشت وأتباعه بأنبياء بنى إسرائيل. وقد ذكر الطبرى هذه الروايات واستشهد بها المؤرخون بعده. ولا ريب أن أكثر هذه الروايات تلبس الحق بالباطل الواهى الذى لا أصل له، إلا أن وجودها يدل على الفكرة اليهودية التى كانت ترمى إلى التقرب من الدين الزرادشتى، وأن هذه الفكرة على مر الأيام اتخذت أشكال الروايات الخرافية ومازالت تروج وتتطور مع محاولة اليهود إثبات أن الدين الزرادشتى إنما اقتبس من دينهم وأن زرادشت وخلفاءه كانوا تلاميذ لأنبيائهم.

*- عقيدة اليهود فى شأن قورش:

لقد تعرضنا فيما تقدم لآراء الناقدين الحديثين فى الأسفار اليهودية ولكن هذا الجانب من البحث لا يعنينا كثيرا، فسواء جاءت النبوءات قبل وقوع الأحداث أو اخترعت بعدها، فلا تأثير لذلك فيما نحن بصدده. إنما الأمر الذى يعنينا ونريد لفت الأنظار إليه، هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة. فمن المعلوم أن أسفار إشعيا وإرميا ودانيال، من كتب اليهود الإلهامية بلا نزاع، فهم يعتقدون بأن كل ما جاء فيها من النبوءات قد تنبأ به الأنبياء قبل حدوث الأحداث بزمن طويل وصدقتها الأيام حرفا بحرف. وهكذا يعتقد اليهود عقيدة راسخة أن ظهور قورش كان من عند الله، بعثه لإنقاذ بنى إسرائيل مما كانوا فيه من البلاء العظيم ولتجديد إعمار أورشليم. فقورش لقب فى كلام إشعيا النبى براعى الله ومسيحه. وأنه ينفذ إرادة الله، وأن الله ناداه باسمه وأرسله لإنهاض بنى إسرائيل وحمايتهم.

وفى رؤيا دانيال مُثل قورش صورة كبش ذى قرنين، ورآه إشعيا فى شكل «عقاب

الشرق». فعقيدة اليهود القومية فى السفر واضحة جلية. وهى تثبت أنهم مستندون إلى أسفارهم المقدسة، لذا كانوا يعتقدون بأن قورش هو ذو القرنين، ويرون ظهوره مصدقا لبشارات أنبيائهم الإلهامية.

لذا فيكون بطبيعة الحال يكون المقصود فى سؤال اليهود عن «ذى القرنين» هو شخص قورش لا غير. أى أن ذلك الملك الذى رآه دانيال فى شكل كبش «لوقرانثيم» وترجمته بالعربية «ذون القرنين» إذ لفظ «القرن» اشتركت فيه على حد سواء العربية والعبرية.

ومن المؤكد أن يهود العرب كانوا يسمون قورش (خورس بالعبرية) بـ«ذى القرنين». ورواية السدى التى ذكرناها من قبل تؤيد هذا التفسير، إذ جاء فيها أن اليهود قالوا: ذا القرنين ذكر فى التوراة مرة واحدة فقط. وفعلا هذا هو الواقع بعينه، فالكبش ذو القرنين لم يرد ذكره فى التوراة إلا مرة واحدة. وذلك فى سفر دانيال وحده. وبهذا فقد ارتفعت سائر الإشكالات دفعة واحدة، فلا حاجة بنا الآن لصرف كلمة «القرن» عن معناها اللغوى العام. فشخصية «ذى القرنين» التاريخية قد برزت للأعين. أما ما ذكر فى القرآن المجيد من أحوال ذى القرنين فسنراها تطابق سوانح قورش مطابقة تامة دون إجهاد لأنفسنا فى هذا الخصوص.

***- العثور على تمثال قورش**

قد يخطر فى البال لأول مرة هذا التفسير لـ«ذى القرنين» المذكور فى القرآن عند مطالعة ما جاء فى سفر دانيال، ويرجح هذا الرازى إذا ما تم الإطـلاع على ما كتبه مؤرخو اليونان. ولكن هناك شهادة أخرى حاسمة خارج أسفار التوراة لم تكن قد قامت بعد، خاصة أنه لم يوجد فى كلام مؤرخى اليونان ما يلقى الضوء على هذا اللقب - وهذه الشهادة هى ظهور كشف أثـرى هـام وخطير يتمثل فى تمثال حجرى لقورش بعينه. وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة ساستفر» نحو خمسين ميلا على شاطئ النهر «مرغاب».

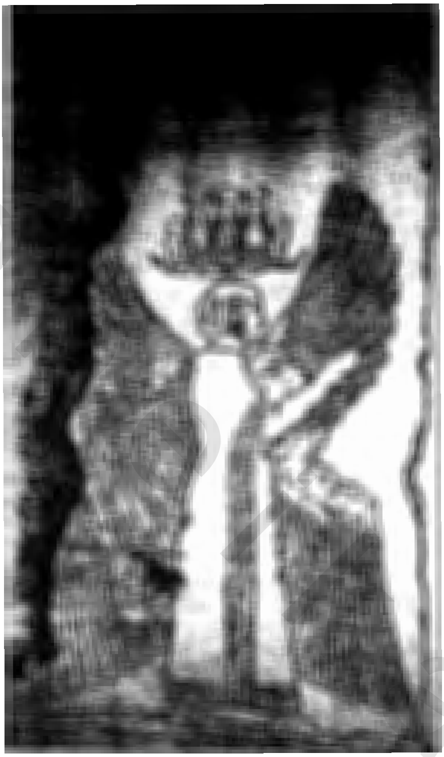

تمثال قورش الذى عثر عليه فى حفريات استخر بإيران

وقد سبق جيمس مورير Morier فأخبر بوجوده، ثم جاء بعد سنوات السير روبرت بورتر Sir Robert porter فقاس المكان وفحصه فحصا دقيقا ونشر رسما للتمثال بالقلم الرصاص وذلك فى كتاب رحلته إلى إيران وجورجيا. وتحدث عنه القس فورستر فى كتابه On Primevel Language واستدل به على نصوص التوراة وكذلك نشر صورة للتمثال ودعمت كافة البحوث الحديثة أن التمثال

لسائرس أى لقورش لا غير تدعيما لا يدع المجال لأى ريبة أو شك. ثم الف الكاتب الفرنسى الشهير دى لا فواى Dieu La Foy كتابه عن الآثار القديمة فى إيران Le artanti que en perse نشر فيه صورة عكسية للتمثال، فعرفه الناس معرفة تامة. واعترف علماء الآثار فى القرن التاسع عشر بجمال وحسن التمثال الفنى. ويرى دى لافواى أنه نموذج ثمين جدا للنحت الفنى القديم بقوله إنه النموذج الفنى الآسيوى الوحيد الذى يضاهى أحسن التماثيل الإغريقية، فلا غرابة أن احتل التمثال أهم مكان فى الآثار الفارسية القديمة.

إنه تمثال على القامة الإنسانية. ظهر فيه الملك قورش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش. يده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام ولباسه نفس ذلك اللباس المعهود الذى نراه فى صور ملوك بابل وإيران. فهذا التمثال يثبت بلا شك أن تصور «ذى القرنين» كان قد تولد لقورش، ولذلك نجد الملك فى التمثال وعلى رأسه قرنان.

وجاء فى رؤيا دانيال أن الكبش الذى رآه، كان على رأسه قرنان ولكن ليس كسائر الكباش، بل كان القرن الواحد منهما وراء الآخر. وهكذا نرى القرنين فى التمثال. أما الجناحان فوجودهما يطابق ما جاء فى سفر إشعيا من قوله:

«.. ادعو عقابا من الشرق، ادعو ذلك الرجل الذى يأتى من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى» (إشعيا: ٤٦ : ١١) ولهذين الجناحين اشتهر التمثال بالطير، والنهر الذى يجرى تحته سمى بـ«مرغاب» أى نهر الطير.

أما عن زمن صنع التمثال - فهناك اجماع بين الباحثين والمؤرخين بأنه صنع إما بأمر الملك قورش فى حياته أو بأمر خليفة من خلفائه. وكانت مدينة سوسان

التى تسمى الآن بأهواز (تقع فى جنوب إيران) وكانت عاصمة مادا (ميديا) مدينة «هج فنانا» التى حرفها العرب فقالوا «همذان» وهى موجودة إلى الآن بنفس هذا الاسم - ولما تولى المُلك المَلك أرتخشثت (الذى سمته العرب بأردشير) بعد الملك دارايوش اتخذ استخر عاصمة له وعمرها بقصور فخمة وبنايات. وظلت «استخر» حاضرة الملك إلى آخر إمبراطور من أسرة «هخامنشى» وهو دارايوش الثالث إذ خربها الإسكندر المقدونى بعد هجومه عليها وتخريبها وإحراقها. ولما فتحت العرب البلاد، كانت استخر قرية تفتقر تماما إلى الحضارة، فأسسوا على مقربة منها مدينة شيراز الحاضرة التى تبعد عنها بستين ميلا.

ويبدو أن تمثال قورش أقيم فى عهد الملك أرخششت (أردشير)، لأنه موجود بضاحية من استخر، إذ لم يكن بقى من خرائبها إلا منصة حجرية قام فوقها التمثال، مما يؤكد من كون قورش هو ذو القرنين وذو الجناحين، وأن لقب قورش هذا كان قد أصبح مشهورا ومسلما به فى ذلك العصر حتى أنهم توارثوه بعد قورش كذلك. ولما أرادوا نصب تمثال له زمن أردشير، حملهم ذلك التصور على تصويره بهذه الصورة.

الفصل الثانى

معتقدات قورش الدينية

obeikan.com

إذ ما نظرنا إلى الشواهد التاريخية نكاد نقطع بأن قورش كان يدين بدين مزديسنا، أى أنه كان يتبع الدين الذى جاء به زاردشت - وليس معلوما حق العلم متى وأين ظهر زادشت. فقد ذكر مؤرخو اليونان فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ما كان شائعا فى عصرهم عن زمنه، فقالوا، مضت عليه ألوف من السنين. ومن المتعارف عليه أن إطلاق القول بالقدم كهذا لا يكون إلا إذا بعد الزمن ومضت عليه ألف سنة أو أكثر، ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القول مبالغ فيه، فلا يتصور لزرادشت مثل هذا القدم.

وقال البروفيسور جلدنر **Geldner** إن زمن زرادشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد وقد قبل الكثير من العلماء رأيه هذا، فإن كان الأمر كما ذكر، فيكن زرادشت وقورش قد عاشا فى عصر واحد. أما مكان ظهوره، فيرجح العلماء أنه ظهر فى إيران الشمالية «أذربيجان» التى سميت فى الجزء المسمى «ويندى» من أوستا كتاب زرادشت بكلمة «إيريانا ويجو» أى أرض إيريانا الطاهرة.

ويقول جلدنر: «وسواء ظهر زرادشت فى زمن قورش أو تقدمه بقليل، فليس هنالك ما يحملنا على الريب فى أن قورش كان من متبعى الدين الزرادشتى».

ورغم عدم توافر الشواهد التاريخية التى تؤيد ذلك بشكل قاطع إلا أننا إذا نظرنا فى القرائن التى تركتها لنا النصوص التاريخية فلا مناص من الاقتناع بأن قورش كان من أتباع زرادشت. وفى هذا الخصوص فلنتدبر حادثين تاريخيين لا شك فيهما، وهما «ثورة جوماتا» التى نشبت بعد وفاة قورش بثمانى سنين، وكتابات دارايوش على الصخور التى تلقى الضوء على معتقداته الدينية.

لقد أجمع المؤرخون على أن قورش توفى سنة ٥٢٩ ق.م وخلفه ولده كمبوشية (كم بى سيز فى اليونانية) الذى استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م ثم علم وهو بمصر أن

ثورة نشبت فى مادا، قام بها رجل يسمى «جوماتا» زاعما بأنه الولد الثانى لقورش الذى كان يسمى «بردية» (سمرديز فى اليونانية)، فرجع كمبوشية من مصر، إلا أنه مات فى طريقه بالشام. ولما كان نسل قورش قد انقطع بوفاة كمبوشية، ارتقى العرش ابن عمه «دارايوش» فقضى على الثورة وقتل زعيمها. وكذلك أجمع المؤرخون على أن دارايوش، ارتقى العرش سنة ٥٢١ ق.م أى بدأ عهده بعد وفاة قورش بثمانى سنوات.

وقد صرح مؤرخو اليونان أن ثورة مادا إنما قام بها أتباع دينها القديم، وقد وصف دارايوش بنفسه زعيم هذه الثورة بكلمة «موجوش» أى متبع دين مادا القديم.

وهنا ينبغى أن ننبه على خطأ شائع. فقد نطقت كلمة «موغوش» فى اللغة العربية «مجوسا» وأطلقوها على أتباع الدين الزرادشتى، ولم يكن فى الأصل اسما لهم، فقد ثبت بلا ريب أنه كان اسما يعرف به أتباع الدين الذى كان شائعا فى مادا قبل زرادشت، فقد وردت الكلمة فى أوستا كذلك واستعملت فى شأن معارضى زرادشت، ولكن لما كان اشتهر أهل مادا فى بلاد العرب والشام باسم موجوش أخذوا يسمون بها أتباع زرادشت كذلك.

ولقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد كذلك، فنشبت الثورة الثانية بزعامة موغوش «براورتيش» الذى قتل فى هج متانا، أى «همذان» والثورة الثالثة قام بها «شترت خمة» الذى أعدم فى أردبيل.

أما كتابات دارايوش، فإن من حسن حظ التاريخ أنه اختار لها الصخور الجبلية التى عاشت على رغم الدمار الإسكندرى، وأهم هذه الكتابات، الكتابة التى اشتهر بـ«الكتابة من دون عمد» وذكر فيها دارايوش تفصيل إرتقائه العرش وثورة جوماتا المجوسى.

وهنالك صخرة أخرى فى استخر ذكر الملك فى كتابها أسماء البلاد التابعة له. وقد تكرر فى هذه الكتابات اسم «أهورا مزدا» الذى يرجع الملك دارايوش جميع مساعيه الناجحة إلى فضله وتوفيقه. ومن المعروف أن سأهورا مزدا» - كما قدمنا من قبل - هو

الله فى الدين الزرادشتى.

وقد يجدر الذكر هنا أنه لا يوجد فيما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل به على أن كمبوشية ابن قورش أو دارايوش ابن عمه قد اختار دينا غير الزراداشتية.

هذا وقد ولد المؤرخ هيردوتس بعد وفاة دارايوش بسنتين فى سنة ٤٨٤ ق.م. وألف تاريخه بعد وفاة دارايوش بنحو خمسين سنة فكان عصر قورش وكمبوشية ودارايوش ليس ببعيد عنه، ولم يذكر شيئا عن أن كمبوشية ودارايوش قد اعتنقا دينًا آخر غير الزرادشتية دين قورش.

كما يلاحظ أن أصحاب الدين القديم (المجوسية) يثورون بعد وفاة قورش بسنوات قليلة مرة بعد أخرى مما يثبت أن قورش كان يدافع بقوة وبأس عن الزراداشتية التى اعتنقها كعقيدة فلما توفى قورش كان رؤساء الدين القديم يحرضون العامة وغوغاء الناس باسم الدين ويحملونهم على الثورات.

لقد كانت شخصية قورش ثورة على الميول العقلية والأخلاقية لعصره. ولا توجد لخصائله الروحية والأخلاقية معينا فى البيئات العيلامية، والآشورية والبابلية، فلابد من أنه شرب من معين آخر، ولا ريب أنه وجد هذا المعين فى تعاليم زرادشت الأخلاقية المثلى: سهومت» و«هوخت» و«هورشت» أى «صدق النية» وصدق القول وصدق العمل.

هذا هو أساس تعاليم زرادشت الدينية. ومن مثل هذه الأخلاق كان مزاج قورش الملكى. فإن كان ذو القرنين يدين بدين مزديسنا، أى بالدين الزرادشتى، ويثبت له القرآن الكريم الإيمان بالله واليوم الآخر، ليس هذا فحسب، بل يجعله من الملهمين من عند الله، أفلا يتبين من هذا أن دين زرادشت، كان دينا صحيحا وأنه ليس هنالك ما يحملنا على رفض هذا خاصة أنه من الثابت أن دين زرادشت كان دين

التوحيد والأخلاق الفاضلة، وأن عبادة النار والعقيدة الثنوية ليستا منه، بل من بقايا مجوسية مادا التى اختلطت بعد انحرافها بالزرادشتية فى العصور التالية - لذا فقد يجدر بنا أن نتعرض بشىء من الشرح لدين فارس ومادا قبل زرداشت.

دين فارس ومادا قبل وبعد زرادشت:

لقد كانت المعتقدات الدينية لسكان فارس ومادا، تشبه معتقدات الشعوب الآرية الأخرى، فقد عبد الآريون فى فارس بادئ ذى بدء كإخوانهم الآريين فى الهند، المظاهر الطبيعية، ثم أخذوا يعظمون الشمس، ثم أحلوا النار محل الشمس، لأنها من بين العناصر المادية كلها تحوى النور والحرارة. وقد تصور سكان الهند واليونان آلهة تمثل الخير والشر معا، ولكن العقلية الإيرانية قسمت القدرة الإلهية إلى قدرتين متوازيتين: فقدرة إله الخير على زعمهم تهب البشر أفراح الحياة كلها، وقدرة إله الشر، تتفجر منها الشرور بأصنافها.

وقد كانوا يبنون مقارا للمذابح فوق الجبال لعبادة النار، يتولاها السدنة الذين كانوا يسمون «موجوش» (موكوش - بالكاف الفارسية). وقد صارت الكلمة تمثل عبادة النار فيما بعد، ونطقت بالعربية والعبرية «مجوس».

وهناك اتفاق بين الباحثين أن ما يوجد فى كتب ديدا الهندية من شعائر عبادة الآلهة يوجد ما هو شائع مثله فى قبائل مادا وفارس المشتغلة بالزراعة. وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية، وأن الشراب المسكر الذى ذكر فى كتب ديدا باسم «سوم» كان يسمى عند الماديين والفرس «هوم» وأن زرادشت ناجى الله فى أوستا (كتاب الزرادشتيين) فى شأن هذا الشراب فقال:

«إلهى، متى يؤثر رؤساء هذه البلاد الهداية على الضلال؟ ومتى يتحرر الناس من

شرور الكاربيين والكاوين (المجوس)؟ ومتى يقضى على هذا الشراب النجس الذى يخدعون به الناس، فيستأصل أصله ويمحى أثره؟» «أوستا ٤٨: ١٠».

ويقول فى مكان آخر:

«إن هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقدمون الضحايا ويفرحون بعملهم» «أوستا: ٣٢».

وقد دعا زرادشت إلى دين «مزديسنا» أى إلى دين التوحيد الذى يحرم الشك بالله وعبادة الأوثان. وقد أبطل زرادشت جميع معتقدات موجوش، أى المجوس القدماء قائلا: ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير، ولا عفاريت كثيرة للشر، بل إنما هو إله واحد، اسمه «أهورا مزدا» الذى ليس كمثله شيء، وهو الواحد، الأحد، القدوس، الصمد، وهو الحق والنور، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شيء. وأن القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير، ليست بخالقة، بل هى نفسها من خلق أهورا مزدا، وهى تسمى «أمش سبند» ويزتا «أى الملائكة» وإنا لنجد فى جزء من أوستا الذى يسمى «غاتها» أسماء ملائكة عديدة، مثل «أشا» و«هوفنا» و«خشترا» و«أمتى» و«هوروتات» و«أمرتات».

والجدير بالملاحظة أيضا أن زرادشت قد صرح مؤكدا على أنه ليس للشر إله، بل داع إلى الشر، هو «انجرامى نيوش» أى الشيطان. وقد حرف الاسم فأخذوا يقولون «آندومين» وبعد مدة حرف مرة أخرى إلى «أهرمن». ومن العناصر الأساسية للدين الزرادشتى، الاعتقاد بالحياة الأخروية، فهو يقول لا تنتهى حياة الإنسان بموته فى هذا العالم المادى، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، فيرى فى تلك الحياة عالمين: عالم السعادة وعالم الشقاء. فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا، يدخلون عالم السعادة، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور، يدخلون عالم الشقاء.

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزرادشتى الأساسية، فهو يقول بفناء الجسد أما الروح فتبقى بعد الموت كذلك ويلاقى الجزاء وفق أعماله.

وأهم ما فى الدين الزرادشتى هو قانونه الأخلاقى، فليست الأخلاق في نظره منفصلة عن الدين، كما كان الأمر عند أهل اليونان، بل هى جزء من الدين، لا انفصال بينهما. وكذلك لم يكن الدين عنده شعارا قوميا، بل قانونا ونظاما للحياة الفردية، وأن طهارة النفس وحسن العمل، لهو المحور الذي تدور عليه تعاليمه الدينية. وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة تامة. وهذا القانون يتلخص فى كلمات ثلاث: هومت، هوخت، هوورشت، أى صدق النية، وصدق القول، وصدق العمل. وأن دينه كما قال البروفيسور «جرندى» كان دين الحقيقة والعمل، فقد جعل الدين حقيقة حياة الفرس اليومية، وجعل مكارم الأخلاق، عنصر مركزيا لدينه. (التاريخ العالمى ج٢ ص٣٠) ودين زرادشت لا تشوبه شائبة من الوثنية، فهو يحرم عبادة الأصنام والوثنية بكل صورها وأشكالها. وقد مضت على دينه أدوار من التحريف والتبديل، إلا أن متبعيه مازالوا مجتبين الوثنية. وقد اعترف بذلك مالكهم فى كتابه «تاريخ إيران» قائلا:

«لم يجنح الفرس وحدهم من بين الشعوب القديمة إلى الوثنية من أى نوع فى دور من أدوار تاريخهم». ورغم أن الهند القديمة قد عرفت التوحيد، إلا أن تصوره ظل محصورا فى الخاصة من أهاليها، أما العامة، فاستحسنوا لها الوثنية. أما زرادشت، فلم يفرق فى ذلك بين العامة والخاصة، فظل متبعوه من سائر الطبقات يوحدون الله على السواء.

لذا نستطيع القول بأنه لم ير التاريخ القديم رلا دعوتين تدعوان إلى التوحيد فى العالم الوثنى، هما دعوة إبراهيم عليه السلام من الشعوب السامية، ودعوة زرادشت من الشعوب الآرية.

زرادشت والثنوية:

شاع بين كثير من الناس نتيجة الخلط بين المجوسية والررادشتية أن الدين الزرادشتى قام على الإلوهية الثنوية (Ditheism) أى الاعتقاد بوجود إلهين اثنين فى الكون: إله للخير وإله للشر، كما كان المجوس يعتقدون قبل زرادشت، ولكن ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق فى شيء، فقد قال زرادشت بأصلين كونيين: أصل الخير، وأصل الشر ولكنه لم يقل بإلهين متوازيين مثلما كان المجوس يعتقدونه قبله فقد أنكر زرادشت مسألة الإلهين المتوازيين إنكارا تاما وشديدا. وكان يقول بالأخلاق الثنوية لا بالألوهية الثنوية.

روح مزديسنا (الدين الزرادشتى) الأخلاقية:

ولا ريب أن هناك اتفاق بين الباحثين ومحققى عصرنا الحديث بأن تعاليم زرادشت قد لعبت دورا غاية فى الأهمية فى الرقى الإنسانى الفكرى والأخلاقى، وأنه قد وصل بأهل مادا وفارس قبل خمسمائة سنة من الميلاد إلى المستوى الأخلاقى الطاهر الرفيع الذى جعل هدفه الوحيد تطهير الحياة الفردية من أدران الشرور، وكان خليقا أن يسبك قوالب مثالية للأعمال الحسنة والخصال الحميدة. ومن الذين شهدوا له بذلك، أولئك الذين لا يمتون بصلة صداقة للفرس، بل كانوا ألد أعدائهم. وعلى رغم ذلك نراهم لا يمارون فى فضل الفرس الأخلاقى.

فهيرودتس وزينوفن يعترفان بكل صراحة بأن الفضائل التى تحلى بها الفرس، خلت منها اليونان - ويقول البروفيسور جرندى (المرجع السابق) فى هذا الخصوص: «إن ما كان الفرس يتصفون به من الصدق ومحاسن الأخلاق لا نرى له مثيلا فى الشعوب المعاصرة لهم».

وقد بلغ الدين الزرادشتي ذروة مجده ليس فى عهد قورش فحسب بل أيضا فى عهد دارايوش الذى ردد صوت هذا الدين فى كتاباته الخالدة على الصخور، فيقول فى واحدة منها، وقد مضت عليها ما يجاوز ألفان وخمسمائة سنة:

«إن الإله العلى أهورا مزدا، هو الذى خلق الأرض، ورفع السماء، وفتح سبل السعادة على البشر، وهو الذى أقام دارايوش وحده حاكما على الكثيرين، وجعله واضع الشرائع لهم».

ويقول فى كتابة أخرى:

«يعلن دارايوش للناس قاطبة بأن أهورا مزدا، قد وهبنى الملك بفضله ورحمته، وقد نجحت بتوفيقه تعالى فى تدعيم الأمن والسلام فى الأرض، وإنى أبتهل إلى أهورا مزدا إلهى، أن يرعانى أنا، وأسرتى، وجميع البلاد التى جعلنى حاكما عليها. يا رب أهورا مزدا، اسمع دعائى واستجبه».

ويقول أيضا فى الدعوة إلى الصراط المستقيم:

«يا أيها الإنسان، أمرك أهورا مزدا ألا تخوض قط فى الشر، ولا تحيد عن الصراط المستقيم أبدا، وأحذر الإثم فى جميع الأحوال».

ودارايوش هو ابن عم قورش الذى خلفه بعد وفاته بثمان سنوات فقط - كما قدمنا - وعلى ذلك ما يقول دارايوش فكأنه قول أستاذه قورش نفسه وقد يلاحظ أن نسبة دارايوش ملكه وكل نجاحاته إلى فضل أهورا مزدا يطابق قول الله تعالى على لسان ذى القرنين (قورش) «هذا رحمة من ربى».

تحريف الزرادشتية وامتزاجها بغيرها:

بدأ تأخر مزديسنا من القرن الثالث قبل الميلاد، فقد أطلت المعتقدات المجوسية

برأسها من جديد من جهة، وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عملها فيه من جهة أخرى، حتى صار هذا الدين، دين قورش ودارايوش فى عصر الإمبراطور الرومانى انتونين فى شكل آخر، فقد فطرته الأولى وانضمت إليه عقائد معوجة معقدة.

ومن الحقائق التى لا مراء فيها أن حرب الإسكندر المقدونى لم تقض على دولة الفرس السياسية فحسب بل جرحت أيضا مجددينها القومى جرحا بالغا. وإذا كانت الأسطورة الفارسية تقول لنا إن صحف زرادشت الدينية المقدسة كانت قد دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور بحبر من الذهب، واحترقت أيام حرب الإسكندر. وإذا كان القول بجلود اثنى عشر ألف ثور فيه مبالغة، إلا أنه ومما لا ريب فيه أن ما فعلت إغارة بختنصر مع التوراة، فعلته إغارة الإسكندر مع أوستا «كتاب زرادشت». أى أن الدينين فى الغارتين فقدا معظم بضاعتها.

ولما تأسست الإمبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الإسكندر، حاول الفرس لم شعث الدين الزرادشتى من جديد، كما جمع النبى عزرا من قبل التوراة بعد أسر بابل. إذ يقال إن أرداشير بايكان أمر بجمع كتاب أوستا من جديد، إلا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتغيرات وإضافات كثيرة، شوشت حقيقتها، فالدين الزرادشتى فى شكله الجديد، لم يكن دينا خالصا، بل أصبح خليطا من المجوسية القديمة، واليونانية، والزرادشتية. وقد زاد الطين بلة الموبذون والمفسرون بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم المتباينة.. التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله وفطرته.

الإسلام والزرادشتيون:

عندما بزغت البعثة المحمدية، كان هذا الدين الزرادشتى المحرف معروفا للعرب باسم المجوسية، غير أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يخف عليه أصل هذا الدين فقال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أى عاملوا الزرادشتيون كما تعاملون أهل

الكتاب، فنرى من هذا أن رسول اللهﷺ لم يقم الزرادشتيين مقام الوثنيين أو الكفار، بل وضعهم بمقام أهل الكتاب. وهكذا اعترف الإسلام لدينهم ما اعترف لدين اليهود والنصارى. وكما نعلم فإن الإسلام بينما يقر ويصدق بأصل دين اليهود والنصارى، ينكر عقائدهم المحرفة المبدلة. وهذا هو ما فعله بالدين الزرادشتى، فلم ينكر أصله، بل أنكر المجوسية المحرفة المبدلة.

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ أنه قال :«إنى أعلم ما عليه المجوس. عندهم شريعة يعملون بها، وكتاب يومنون به (يقصد أوستا) فعاملوهم معاملة أهل الكتاب».

فمازال المسلمون يرون أن الدين الزرادشتى فى أصله لم يأمر بعبادة النار، بل أمر بالتوحيد، وأن زرادشت كذلك كان نبيا من الأنبياء القدماء.

وقد أفصح الفردوسى صاحب «شاة نامة» الخالدة عن هذا الرأى بقوله:

مكوئى كه آتش برستان بدند   برستند كان نيك يزدان بدند

وترجمته: لا تقل عن الزرادشتيين أنهم كانوا عبدة النار، بل كانوا يعبدون الله الواحد الأحد.. وكان أبو الريحان البيرونى فى عصر الفردوسى يحقق تواريخ وسنن الأمم القديمة. وقد ذكر فى كتابه الشهير «الآثار الباقية» ما يستنبط منه أنه كان يفرق تماما بين الدين الزرادشتى الأصلى والحقيقى والمجوسية. وقد صرح شيخ الإشراق، شهاب الدين المقتول فى كتابه «حكمة الإشراق» بأن زرادشت كان نبيا. ليس هذا فحسب بل وصل بين زرادشت وبين المذهب الأفلاطونى الجديد.

نفى إمبراطور الرومان جستينين فى سنة ٥٢٩ ق.م فلاسفة الإسكندرية، فتوجه بعضهم إلى إيران ولقوا كل ترحيب فى بلاط أنو شروان. وقد عرفت اللغة الفارسية

مذهب أفلاطون الجديد، بسبب هؤلاء الفلاسفة، وليصبغوه بالصفة القومية نسبة بعض حكماء إيران إلى زرادشت وجاما سب، ولما نقلت الآداب الفارسية إلى العربية توهم الناس أنه كانت لزرادشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار، تشبه فلسفة الإسكندرية إلى حد كبير، ولعل الذى كتبه شيخ الإشراق فى مقدمة «حكمة الإشراق» ناتج من هذا الوهم، ولقد أخطأ الكثيرون من حكماء ومؤرخى العرب فى ظنهم أن مذهب أفلاطون الإسكندرى الجديد، هو مذهب أفلاطون نفسه. ولقد وقعوا فى هذا الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين بلاتيتس وأفلاطون، أو خدعتهم دون دراسة متأنية نسبة المذهب إلى أفلاطون.

ووافقه فى قوله شارح «حكمة الإشراق» قطب الدين الشيرازى. ومن الملفت للنظر أن الصوفى الهندى الشهير الميرزا مظهر جان جانان بمثل هذا الرأى فى شأن قادة الأديان القدماء بالهند وإيران (كلمات طيبات - الجزء ١٤ ص٣٧).

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة إلى اللغة العربية كذلك كتاب «أوستا» الذى دون فى العصر الساسانى - كما تقدم ذكره - وإليه يشير مرة بعد أخرى، أبو حمزة الأصفهانى فى تاريخ سنى ملوك الأرض «ص٦٤» وكذلك بين المسعودى والبيرونى نوعية أوستا، وذكرا ترجمته العربية فقالا، إن أوستا يحتوى على واحد وعشرين جزءا فى نحو أربعمائة صفحة، وأنه يسمى أحد الأجزاء «جسترشت» الذى ذكرت فيه بداية العالم ونهايته، ويسمى الجزء الأخير منها «هادوخت» الذى يحتوى على وصايا أخلاقية.

الفصل الثالث

ذو القرنين المذكور في القرآن

«الملك قورش»

obeikan.com

لا ريب أن مسألة لقب «ذى القرنين» قد حلت نهائيا، ولا شك فى أن تصور ذى القرنين لقورش كان قد وجد، وإن غضضنا النظر عن الشهادات الصريحة التى يشهد بها العهد القديم، فإن تمثال قورش نفسه لشهادة حسية ملموسة حاسمة فى كون ذى القرنين هو الملك قورش.

ولنرى الآن إذا ما كانت الحلةً التى فصلها له القرآن الكريم توافقه أم لا؟ وسنرى إن شاء الله تعالى أنها توافقه كل الموافقة.

١ - ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

إن أول ما وصف به الله عز وجل ذا القرنين فى القرآن الكريم هو قوله تعالى:﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[الكهف: ٨٤]. أى أننا منحناه السلطان والتثبيت فى الملك وهيأنا له جميع الوسائل والمعدات التى كان يحتاج إليها لتدعيم حكمه وإتمام فتوحه.

ومن أسلوب القرآن الكريم أنه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة - كما نراه فى هذه الآية - يريد بذلك أمرا عظيما قد وقع على خلاف المعهود، ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه.

فمثلا نرى فى سورة يوسف أن المولى عز وجل يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[يوسف: ٢١].

أى جعلنا يوسف متمكنا فى أرض مصر وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل إلى حكم مصر بطريقة عجيبة غير معهودة، ولذلك نسب إلى الله ليبين أنه كان من نعم الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن وأجلسه على عرش البلاد. ولما كان أسلوب الكلام عن ذى القرنين هو نفس هذا الأسلوب، كان لزاما أن يكون وصول ذى

القرنين كذلك إلى مقام الملك والسلطان فى ظروف غير عادية، فيكون منحة خاصة من عند العلى القدير. وفى هذا الخصوص نجد هذا التفسير ينطبق تماما على حالة ذى القرنين، فقد بدأ حياته فى ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة للعقول، حتى سبكتها فى قالب أشبه بالأسطورة. فرغم أنه لم يولد بعد، إلا أن والد أمه أصبح عدوا لدودا له، يريد الفتك به، ولكن الرجل الذى كلفه لقتله بعد ولادته، امتلأ قلبه عطفا وحنانا عليه، فاختطفه من براثن الموت. فينشأ فى الغابات والصحارى والجبال، ويحيا حياة الرعاة المهملين المجهولين، فبينما هو كذلك إذ تتغير الأحوال بغتة، وتقوده إلى ساحات الجد والاجتهاد فى الأسباب والعمل، مشمرا عن ساعديه، فيخلو له عرش مادا بدون مزاحمة. فلا ريب أن سير حوادث الحياة العادية لا يكون هكذا بل إنه حقا أمر فذ نادر وعجيب.

و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾:

ثم قال المولى عز وجل سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٤] أى وهبناه كل الوسائل للعمل والنجاح. ولنرى كيف تطابق هذه الكلمات من الآية الكريمة، الأمر الواقع. إن الشاب الذى كان بالأمس راعيا مجهولا، قد استوى اليوم على عرش الملك، وملك جميع ما كان فى حاجة إليه من وسائل العمل بدون حرب ولا نضال. ويقول مؤرخو اليونان فى ذلك: إن جميع قبائل فارس قد اتفقت على طاعته من تلقاء نفسها، وظهرت فى التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المتحدة (بعد اتحاد فارس ومادا) ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل.

٢- المهمة الأولى الغريبة:

ذُكر فى القرآن الكريم لذى القرنين ثلاث مهمات، كانت الأولى منها إلى «مغرب الشمس» والغرض الواضح من «مغرب الشمس» الجهة التى تُرى الشمس وهى

تغرب نحوها، أى جهة الغرب، وليس معنى ذلك مكان غروب الشمس حقيقة، إذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا، وقد يجدر الذكر هنا أن كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ«مغرب الشمس» وبـ«مطلع الشمس» وكذلك نجد فى العهد القديم تعبيرات كهذه، فنقرأ مثلا فى سفر زكريا:

«(يقول رب الجموع أنى أنجى شعبى من البلد الذى تطلع منه الشمس، ومن البلد الذى تغرب فيه الشمس») «٨:٧». أى أنجى بنى إسرائيل من مصر وبابل، إذ مصر لفلسطين بلاد المغرب، وبابل بلاد المشرق. فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى البحث، إلا أن أمرا جليا كهذا أصبح معقدا لولع بعض المفسرين للأسف بالعجائب فتوهموا أن ذا القرنين وصل إلى مكان تغرب فيه الشمس حقيقة.

والذى حدث فعلا أن مهمة قورش الأولى كانت إلى الغرب ولا ريب أنها كانت مهمة ليديا، لأنك إذا توجهت من شمال إيران إلى آسيا الصغرى، تكون قد توجهت نحو الغرب تماما. إذ ما كاد قورش يضع تاج فارس ومادا على رأسه، حتى فاجأه ملك آسيا الصغرى كروسس بالهجوم.

وقد تكونت مملكة آسيا الصغرى، التى عرفت باسم ليديا حينئذ فى القرن السابق للحوادث التى نحن بصددها، وكانت عاصمتها مدينة سارديز، ولقد كانت هناك حروب سابقة بين مادا وليديا قبل ارتقاء قورش العرش، ثم صالح والدكروسس، جد قورش استياغاس، ولأجل تصميم الاتحاد، تصاهرت الأسرتان المالكتان. ولكن كروسس داس على كل هذه العلاقات والقرابات. فقد كبر عليه أن تنشأ امبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادا تحت زعامة قورش الناجحة المبهرة، فحرض أولا حكومات بابل، ومصر، وإسبارتا عليه، ثم استولى بغارة مفاجئة على بلدة بتريا الواقعة على الحدود. فاضطر قورش إلى رد سيف المهاجم إلى نحره، فخرج من هج

obeikan.com

متانا (همذان) عاصمة ماداء وانقض كالصاعقة على خصمه، ولم يطل النضال، بل سقطت مملكة ليديا كلها أمام قدميه بعد موقعتى بتريا وسارديز.

وقد عرض لنا هيرودوتس تفاصيل هذه الحرب وهى ممتعة وانتهى إلى أن انتصار قورش كان سريعا جدا لم يتوقعه أحد، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوما إلا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ووقع ملكها كروسس بين يدى قورش الفاتح.

فأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام إلى البحر الأسود خاضعة لقورش، ولكنه ما زال يتقدم وتوغل حتى بلغ آخر المغرب، أى إلى ساحل البحر. وهنا بالطبع وقفت أقدامه عن المزيد من التوغل كما وقفت بعد اثنى عشر قرنا أقدام موسى بن نصير على الساحل الشمالى من إفريقيا.

لقد اجتاز قورش من هج متانا إلى ليديا ألف وأربعمائة ميلا، وأصبح لا يقدر على المزيد من التوغل أكثر من هذا فوق أمواج البحر فتوقف. فإذا هو يرى الشمس تغرب فى عين الخليج الساحلى. وكان له هذا المقام، بلا ريب، مغرب الشمس، أى نهاية المغرب (الغرب) بالنسبة له.

قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾:

إذا ما وضعنا خريطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى أمامنا. فإننا نرى معظم الساحل قد تقطع فى خلجان صغيرة، لاسيما على مقربة من أزمير، حيث اتخذ الخليج صورة عين. وكانت سارديز على مقربة من الساحل الغربى، ولا تبعد كثيرا عن أزمير الحاضرة.

لذا فإنه يمكننا أن نقول إن قورش لما تقدم بعد استيلائه على سارديز، وصل من ساحل بحر إيجه إلى مكان قريب من أزمير، ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين، وكان الماء قد انكدر من وحْل الساحل فرأى الشمس تغرب مساء فى هذه العين.

وهذا هو ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: ٨٦]. أى أنه تراءى له كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من الماء.

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب فى مكان ما، ولكنك إن وقفت على ساحل بحرى، رأيت الشمس كأنها تغرب رويدا رويدا فى البحر.

وعن مغرب الشمس فى عين حمئة فقد يجدر الذكر هنا أيضا أن ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى قد قرأوا: تغرب فى عين حامية بدل حمئة وكما هو معروف أن معنى حامية هو حارة، ومعنى حمئة هو كثيرة الحمأة أى الطينة السوداء، وقد يُجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمأة وقال ابن عباس رضي الله عنه: أقرأنيها أبى كما أقرأه رسول الله ﷺ «فى عين حمئة».

غير أن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه كان يقول: هى حامية ردا على ابن عباس وقال: عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه وأنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا بينهم كعبا (كان حبرا يهوديا أسلم وحسن إسلامه) حكما فقال له معاوية :«يا كعب كيف تجد هذا فى التوراة». فقال كعب «أجدها تغرب فى عين سوداء» فوافق ابن عباس.

وقال «القفال»:

«ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا، لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض، بل أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، وإنما المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة كما نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض، ولهذا قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾
ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم».

٣- المهمة الشرقية:

وكانت مهمة قورش الثانية إلى مشرق الشمس، أى فى جهة الشرق فهيرودتس وتى سياز كلاهما يذكران هذه المهمة الشرقية التى قام بها قورش بعد فتحه ليديا وقبل استيلائه على بابل فقالا: «إن طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية، حمله على القيام بهذه المهمة».

وهذا يطابق ما جاء فى القرآن الكريم - قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾
[الكهف: ٩٠] أى أنه لما وصل إلى نهاية الشرق، رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يستترون به عن قيظها، يعنى أنهم كانوا من القبائل الرحالة التى لا تسكن المدن ولا تبنى لها البيوت.

ويبدو أن هذه القبائل الرحالة مما صرح به مؤرخو اليونان كانت قبائل بكتريا أى بلخ. ولو نظرنا فى الخريطة لوجدنا بلخ هى بمثابة الشرق الأقصى لإيران، لأن الأرض بعدها ترتفع كثيرا وتسد الطريق والظاهر أيضا من أقوال مؤرخى اليونان أن قبائل غيدروسيا كانت أخذت تسعى فى الفساد على حدوده الشرقية، فقام من مكانه حتى وصل بلخ فاتحا. والمقصود بـ«غيدروسيا» البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان (تقع بين إيران الجنوبية والسند).

ورغم ذكر المؤرخين اليونانيين لهذه المهمة - كما قدمنا - إلا أنهم لم يبينوا بدقة تاريخها وإن كان يعتقد أنها كانت بين سنة ٥٤٠ وسنة ٥٤٥ ق.م - وإذا كان قورش

قد وصل إلى نهاية الشرق «بلخ» فإن هذا يعنى أنه قد خرج من إيران الجنوبية فوصل إلى مكران ومنها إلى كابول مارا ببلوخستان ومن كابول توجه إلى بلخ فإنه يكون فى الغالب قد فتح بلاد السند فى هجومه هذا (كان الفرس يسمون السند باسم الهند) ومما يؤكد هذا أننا نجد فى لوحة دارايوش (اسم الهند) بين أسماء البلاد الثمانية والعشرين المفتوحة التى ذكرها فيها.

٤- المهمة الثالثة الشمالية وسد يأجوج ومأجوج:

وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها يأجوج ومأجوج. وهنالك بنى السد. كانت هذه مهمته الثالثة. وصل إليها، تاركا على يمينه بحر الخزر، إلى جبال القوقاز qucasus حيث وجد مضيقا بين جبلين منها.

وقد جاء ذكر هذا فى القرآن الكريم حيث قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: ٩٣].

والمقصود بين السدين، مضيق فى جبال القوقاز. والمقصود بقوم لا يكادون يفقهون قولا هو أنهم كانوا جبليين متوحشين، حرموا من المدنية والعقل والفهم.

وإننا إذا ما نظرنا فى الخريطة نجد على يمين القوقاز، بحر الخزر الذى يسد طريق الحافة الشرقية منها وعلى اليسار البحر الأسود الذى يسد طريق الحافة الغربية، وترى فى الوسط سلسلة جبالها الشاهقة التى صارت جدارا طبيعيا، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجمين من الشمال إلا مضيق وسطى فيهذه الجبال، يجتازه المهاجمون ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه. فبنى قورش فى هذا المضيق سدا حديديا لا يستطيع أحد أن يتسلقه أو ينقب فيه سد به الطريق على المغيرين.

ولم يأمن أهل سهول قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد بابا مقفلا منيعا لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية فأمنت جميع الشعوب القاطنة في آسيا الغربية وفي مصر من جهة الشمال.

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنالك وكانوا خلوا من العقل والفهم والمدنية ووصفوا في القرآن الكريم بأنهم لا يكادون يفقهون قولا والذين شكوا إلى ذي القرنين هجمات يأجوج ومأجوج عليهم فيحتمل أن يكونوا القوم الذين ذكرهم مؤرخو اليونان باسم «كولشي» وذكروا في لوحة داريوش باسم «كوشيا».

وقد يجدر الذكر هنا أن بلاد القوقاز الحاضرة واقعة في وديان هذه البلاد. وهناك نهر نزل عليه قورش وجيشه أثناء مهمته فسمي النهر في ذاك الحين بـ«نهر سائرس» أي نهر قورش.

٥- أوصاف ذي القرنين الأخلاقية في القرآن الكريم:

إذا أتت أمامنا أوصاف ذي القرنين الأخلاقية الوارد ذكرها في القرآن المجيد، نجد أن أولها عدله وحبه لرعيته. فلنرى إلى أي حد ينطبق هذا الوصف على حياة قورش.

يخبرنا القرآن الكريم أن الله عز وجل قال له في شأن الذين وجدهم في الغرب ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[الكهف: ٨٦] أي أصبح هؤلاء في قبضة يدك، فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسنى.

ولا شك في أن هؤلاء كانوا الشعب اليوناني في ليديا. فقد هاجمه ملكهم كروسس بدون حق ناسيا العهود والقرابات، ولم يكتف بهجومه، بل حض عليه جميع الدول القومية المعاصرة. والآن بعد أن خاب سعيه وعاد كيده في نحره، كان لقورش أن يعاقبه على سوء عمله. ولو فعل ذلك، لما عوتب فيه لأنه كان له الحق بذلك. هذا

هو الأمر الذى عُبر عنه فى القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فماذا فعل ذو القرنين؟ لقد عاملهم بالحق لأنه ليس من الذين يميلون للظلم لقد قال الله تعالى على لسان ذى القرنين فى القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

أى لا أعاقبهم على ما سبق لهم من الشر، بل أعفو عنهم. ومن يأت بمنكر بعد هذا، نيل جزاء عمله، ثم يرد إلى الله ليعاقبه بما هو أشد وأدهى، وأما من يعمل الخير ويطع أمرى، فأجزيه بالحسنى.

هذا هو إجمالى ما فصله مؤرخو اليونان من سيرة قورش وقد قبله مؤرخو العصر الحاضر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها.

هذا وقد اتفقت كلمة مؤرخى اليونان على أن ما فعله قورش بعد فتحه ليديا، لم يكن العدل الصراح فحسب، بل كان أكثر من ذلك، كان كله سماحة ومرحمة وكرما ونبلا. فلو عاقب أعداءه لكان ذلك عدلا لأنهم كانوا جناة مجرمين، ولكنه لم يقف عند حدود العدل، بل صعد إلى المقام الأعلى من الإنسانية الفاضلة - ويقول هيرودوتس فى ذلك:

«أمر قورش جنوده بألا يرفعوا السلاح على أحد غير المحاربين من الأعداء، ومن يخفض رمحه منهم فلا يقتلونه. أما كروسس الملك المنهزم، فأمر فى شأنه ألا يؤذيه أحد، حتى ولو هاجمه بسلاحه. ولقد أطاع الجيش أمره طاعة تامة، حتى لم يشعر عامة الأهالى بويلات الحرب. تغير الملك والسلطان، دون تقتيل الأهالى أو ترويعهم وتدمير بيوتهم. وهنا يجب ألا ننسى بأن انتصار قورش كان هزيمة منكرة لألهة اليونان، لأنها لم تقدر على صون عابدها الخاص كروسس من المحنة الكبرى.

فقد قال المؤرخون أن كروسس استخار الآلهة، قبل إقدامه على الهجوم، وأن هاتف «دلفى» قد بشره بالفتح المبين، ولما نعكست الآية وأنكسر كروسس، استاء اليونانيون، فأخذوا يؤولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه الهزيمة الشنيعة فتحا دينيا لآلهتهم. فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس فى ليديا بعد اندحار ملكهم، فزعموا أن هاتف دلفى لم يخطئ، وإنما أخطأ كروسس فى فهم جوابه لتحمسه الحربى. إذ قال له الهاتف :«إن هاجم كروسس الفرس فيدمر مملكة عظيمة» أى أنه يقضى بهجومه على مملكته العظيمة نفسها، ولكنه أساء الفهم، فظن أن الهاتف بشره بانهيار المملكة الفارسية. وكذلك زعموا أن قورش لما أمر بإحراق كروسيس فوق مصطبة الحطب، تذكر كروسس، وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار قول فيلسوف يونانى له، فأخذ يبتسم.

وقد أخبروا قورش بذلك، فتأثر به أيما تأثر وأمر فورا بإطفاء النار، ولكن النار كانت قد تأججت وعجز رجال الملك عن اطفائها، فنادى عند ذلك كروسس الإله «أبالو» وعلى رغم أنه لم يكن على السماء غيم أخذ المطر ينهمر، فانطفأت النار، وأنقذ الأله حياة كروسس بعد أن عجز عنه كل البشر.

تلك كانت مزاعم القوم الواهية بعد اندحار ملكهم، ولكنا عندما نرجع إلى ما صرح به هيرودوتس وزينوفن، تتجلى الحقيقة، فقد قام كروسس بهجومه بعد أن تقوى قلبه ببشارة كهنة ألهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب، فأراد قورش أن يبطل ما اعتقده القوم ويريهم أن الذين اتخذوهم آلهة من دون الله الواحد الأحد، لا يستطيعون لهم نصرا، ولا يقدرون على انقاذ أحد أو من ادعى أنهم بشروه بالفتح من الاحتراق وهو حى. ولذلك أمر قورش أولا أن يقعدوا كروسس على مصطبة الحطب ويشعلوا النار فيها، ليرى الناس بأعينهم أن آلهتهم لا قدرة لها. وأنه ليست هنالك أية معجزة من آلهتهم المزعومة تنقذ ملكهم من النار، بل سيصير رمادا

تذروه الرياح. فلما تجلت هذه الحقيقة للعيان، أمر الملك بنفسه أمام الناس باطفاء النار لينجو خصمه المكسور من الهلاك. وقد تجدر الملاحظة هنا أن معجزة «أبالو» المزعومة فى أسطورة اليونان لتشير صراحة إلى الحقيقة التى أراد قورش إثباتها بعمله، ولذلك حاول قوم كروسس نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة.

لقد جاء القرآن الكريم قول الله عز وجل على لسان ذى القرنين ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾[الكهف: ٨٨] أى أن أحسن القوم، فسيرون أنه ليس فى معاملتى ما يشق عليهم أو يسوءهم.

وقد شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما جاء ذكره فى القرآن، فقد كان للبلاد التى فتحها رمزا للعدل والمرحمة والعطف. فقد نجاهم من كل ما كانوا يئنون تحته من الظلم والاستبداد والخراج الثقيل والضرائب الباهظة التى كان الملوك فى ذاك العصر يفرضونها على الرعية. وقد فتح يسر أوامر قورش وعدل ورحمة قوانينه دورا جديدا للرخاء ورغد العيش للناس قاطبة.

٦- خصائص قورش العامة:

لقد تعرضنا لكيفية تعامل قورش مع البلاد التى فتحها. فما الذى شهد به مؤرخو اليونان فى شأن عاداته وخصائله؟ وإلى أى مدى تتطابق مع ما ذكره القرآن منها؟

وقد لا ينبغى لنا أن ننسى الأمر الواقع، وهو أن المؤرخين الثلاثة الذين كتبوا عن قورش، لم يكونوا من قومه. ولا من أبناء وطنه ودينه، بل كانوا من اليونان. ليس هذا فحسب، بل لم يكونوا من أصدقائه ومحبيه. فقد هزم قورش ليديا، وهزيمة ليديا كانت فى الحقيقة هزيمة لقومية اليونان، ولحضارة اليونان، وآلهة اليونان. ثم خلفه دارايوش وأردشير، فأغارا على بلاد اليونان نفسها. وهكذا تولد العداء بين الشعبين وتمكن. ولقد ألف هؤلاء المؤرخون الثلاثة كتبهم فى عصر أردشير أو بعده، أى فى العصر

الذى اشتعلت عواطف اليونان القومية فيه إلى آخر حد، وزادت اشتعالا عندما أخذ شعراء اليونان يكتبون أشد التمثيليات العدائية فى تاريخ اليونان ضد الفرس «وهى موجودة إلى يومنا هذا»!

ومع كل ذلك نرى كل واحد من مؤرخى اليونان الثلاثة يعترف بعظمة قورش الخارقة للعادة وبفضائله الأخلاقية الفذة. وهذا دليل قاطع على أن محاسن قورش كانت قد اشتهرت اشتهارا ما كان يسع أحد معها أن ينكرها أو يمارى فيها حتى ولو كان من أكبر أعدائه.

يقول هيرودوتس:

«كان قورش ملكا كريما، جوادا سمحا للغاية. لم يكن حريصا على جمع المال كغيره من الملوك، بل كان حرصه على الكرم والعطاء. يبذل العدل للمظلومين، ويحب كل ما فيه خير البشر».

ويقول زينوفن:

«كان ملكا عاقلا رحيما. اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائل الحكماء. همته تفوق عظمته، وجوده يغلب جلالته، خدمة الإنسانية شعاره، وبذل العدل للمظلومين ديدنه. وقد حل فيه - مكان الكبر والعجب - التواضع والسماحة».

٧- بروز شخصية قورش:

وأبرز ما نجد فى صفحات هؤلاء المؤرخين، هو رفعة شخصية قورش الفذة، فقد أجمعوا على أنه لم يكن من نبت عصره، بل شخصا فذا، كأنه سبق خلق عصره، لم يعلمه معلم، ولم يربه حكيم، ولم ينشأ فى بلد متحضر، وإنما كان ربيب الفطرة، وصنيع أيدى الحكمة الأزلية، مضت الأيام الأولى من حياته فى حجر الصحارى وكنف

الجبال. كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس، فلما برز هذا الراعى أمام أعين العالم، كان أرقى مظهر للحكم، وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة.

لقد نشأ الإسكندر الأكبر على يد أرسطاطاليس، ولا شك أنه كان قائدا وفاتحا عظيما، ولكن هل فتح زاوية من زوايا الإنسانية والأخلاق؟

لم يوجد لقورش أرسطاطاليس، وأنه عوضا عن المدارس البشرية، نشأ فى مدرسة الفطرة الإيمانية مشمولا بعناية الله جل وعلا. فلم يكتف بفتح البلاد كالإسكندر، بل فتح مملكة الإنسانية والفضيلة كذلك.

إن عمر فتوح الإسكندر لم تجاوز عمر الإسكندر نفسه، ولكن المعاقل التى شيدتها فتوح قورش، صارعت حوادث الدهر الغلابة قرنين كاملين بدون أن يصيبها تلف. فما لفظ الإسكندر أنفاسه الأخيرة، حتى تقطعت أوصال مملكته المفتوحة، ولكن قورش عندما انتقل من الدنيا، كانت مملكته مستعدة للتوسع والتمكن. ولم يكن ينقص فتوحه إلا مصر، فأتم النقص ولده كوشيا بالاستيلاء عليها. وبرزت بعد بضع سنين تلك الامبراطورية العظيمة التى لم ير العالم القديم مثلها قط. فبسطت سلطانها على ثمانية وعشرين بلدا من قارتى آسيا وأوروبا وكذلك مصر.

لقد كانت فتوح الإسكندر، فتوحا مادية، بينما فتوح قورش شملت الجسد والروح معا. ترفع الأولى رأسها فلا تقدر على البقاء، بينما تبقى الأخرى غير متزحزحة.

ولقد اعترف بهذه الحقيقة محققو التاريخ فى العصر الحديث، فهذا المستر جرند CB Grundy أستاذ جامعة أوكسفورد، والعلامة الثقة فى التاريخ القديم، والذى نال مؤلفه الكبير (الحرب الفارسية الكبرى) شهرة واسعة وقبولا عاما بين الباحثين ومؤرخى العصر الحديث يقول جرندى فى مقال له:

«لا ريب، كانت شخصية قورش، شخصية فذة غير عادية فى عصره، فإنه أحدث فى قلوب الشعوب المعاصرة له أثرا يحير الألباب. وقد ألف زينوفن، تلميذ سقراط، سوانح حياته بعد موته بمائة وخمسين سنة. وإنا لنرى فى جميع الروايات فضائله الإنسانية بارزه. وسواء اهتممنا بها أو لم نهتم، إلا أنه لا مناص لنا من الاعتراف بأن حبل سياسة ملكه كان مرتبطا بمحاسنه الأخلاقية وفضائله الإنسانية.

وإذا لاحظنا سلوكه مع ما كان عليه ملوك الأشور وبابل من السيرة، نجده يتلألأ عظيما رائعا».

ثم يقول:

«لقد كان نجاحه، نجاحا عظيما. كان قبل اثنتى عشرة سنة أميرا مجهولا لإمارة مجهولة وهى «انشان» فإذا هو نراه الآن قد خضعت له جميع تلك البلاد التى كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة. فهذه البلاد التى ادعت ملكية الأرض فى أيامها، لم يعد أحد منها يتجرأ الآن على ادعاء الزعامة لنفسه، فمن بلاد سارجون الملك الأسطورى للمملكة الآكادية، إلى بلاد بخت نصر، إمبراطور بابل، سجدت كلها لهذا الامبراطور الجديد. إنه لم يكن فاتحا عظيما فحسب، بل حاكما كبيرا كذلك. وإن الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقط بل رحبت به أيضا. ففى السنين العشر الأخيرة من حياته بعد فتح بابل، لم تحدث ولا ثورة واحدة فى مملكته الواسعة. أجل، كانت رعيته تهابه، ولكن لا تخشى قسوته، إذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب. لم يكن المذنبون يعذبون، ولا تصدر الأوامر بالمذابح، ولا تخاف الشعوب التهجير من الأوطان، بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل. لقد محيت آثار مظالم الملوك الأشوريين والبابليين، ورجعت الشعوب المنفية إلى أوطانها، وأعيدت إليها معابدها. لم يبق اعتساف ضد

العوائد والعبادات القديمة. بذل العدل لسائر الشعوب، ومنحت الحرية التامة لجميع الأديان والمذاهب. وقد حل محل الخوف العام السابق، عدل عام، وسماحة كريمة، ومساواة تامة». «يراجع كتاب تاريخ العالم لهمرتن ج٢».

إن ما شرحه وفصله مؤرخو اليونان القدماء ومؤرخو العصر الحديث من فضائل ذى القرنين وخصاله الحميدة قد أجمله المولى عز وجل فى القرآن الكريم فى كلمات معجزة وجيزة.

obeikan.com